المعاينة في الإثبات الجنائي

اللواء د. محمد محمد محمد عنب
اكاديمية الشرطة - القاهرة

للمعاينة مكانة بارزة منذ العصور القديمة في الاثبات على الصعيدين الجنائي، والمدني، لما لها من دور كبير خلال مراحل الدعوى، وازدادت أهميتها في العصر الحديث نتيجة التطور العلمي والتقني، مما دفع المشرع في مختلف دول العالم إلى النص على أحكامها، وساهم الفقه والقضاء في إرساء قواعدها، ليتحقق الهدف منها وذلك بالبحث عن الأدلة التي تثبت الحق المتنازع عليه في الأمور المدنية، ووقوع الجريمة ليتحقق رد الفعل الاجتماعي الذي يصلح من شأن المجرم ويعيد تأهيله عضواً صالحاً في المجتمع.

من الحقائق التي لم تعد تقبل الجدل أن هناك تناسباً طردياً بين التقدم العلمي وأسلوب ارتكاب الجريمة، ففي الماضي كان المجرم يرتكب جريمته بأسلوب بدائي يتناسب مع إمكانات عصره، ولكن في عصرنا هذا طوَّر المجرم اسلوبه واستعان في ارتكاب الجريمة بالوسائل العلمية الحديثة، وتفنن في محو آثاره المادية، فأصبح من المسلم به قبول التحدي، وذلك باتباع الأسلوب العلمي الذي يبدو واضحاً في معاينة مسرح الجريمة بوصفها وعاء للأدلة المادية، لضبط الجرائم ومرتكبيها بما يحقق التفوق والسيطرة على المجرم مهما كانت درجة خطورته فيسود الأمن والأمان.

ولما كانت معاينة مسرح الجريمة هي الإطار الذي يضم الأدلة المادية على ارتكاب الجريمة دون خشية أو تحيز أو غرض سوى كشف الحقيقة، فهي تحتل مكانة مرموقة بين وسائل الإثبات الجنائي فيسعى إليها المحقق والقاضي لإثبات الوقائع كما أنها تخرج المحكمة من دائرة الشك إلى اليقين، وتبعث على ارتياح المواطنين لمجرى سير العدالة المبني على الأسس العلمية والفنية الحديثة، قاطعة الدلالة على الحقيقة..

والمعاينة عبارة عن إثبات مادي للحالة التي عليها شيء أو مكان أو شخص بواسطة المشاهدة أو الفحص المباشر بالحواس والإدراك ممن يقوم بمباشرة الإجراء وذلك بهدف جمع الآثار المادية التي تدل على وقوع الجريمة وتحديد مرتكبها. وبيان حالته النفسية والعقلية أو كشف حقيقة الشيء المتنازع عليه في المسائل المدنية.

وتشمل المعاينة في المسائل الجنائية الإثبات المادي المباشر، والفحص الدقيق للآثار المادية للجريمة، وتنصب المعاينة على أشياء مادية كالآثار التي يتركها الجناة أو الأدوات التي استخدموها أثناء ارتكاب الجريمة، أو مكان وقوع الجريمة، أو إثبات حالة الأشخاص سواء كانوا جناة أو مجنياً عليهم أو شهودا. ومعاينة الشاهد لإثبات حالة الحاسة التي استخدمها في إدراكه للواقعة فقد يكون ضعيف البصر، ويبدو عليه هذا بمجرد النظر إليه، وبالرغم من ذلك يشهد بأنه رأى الجاني أثناء ارتكابه الواقعة من مسافة بعيدة، أو سمع همسا وهو

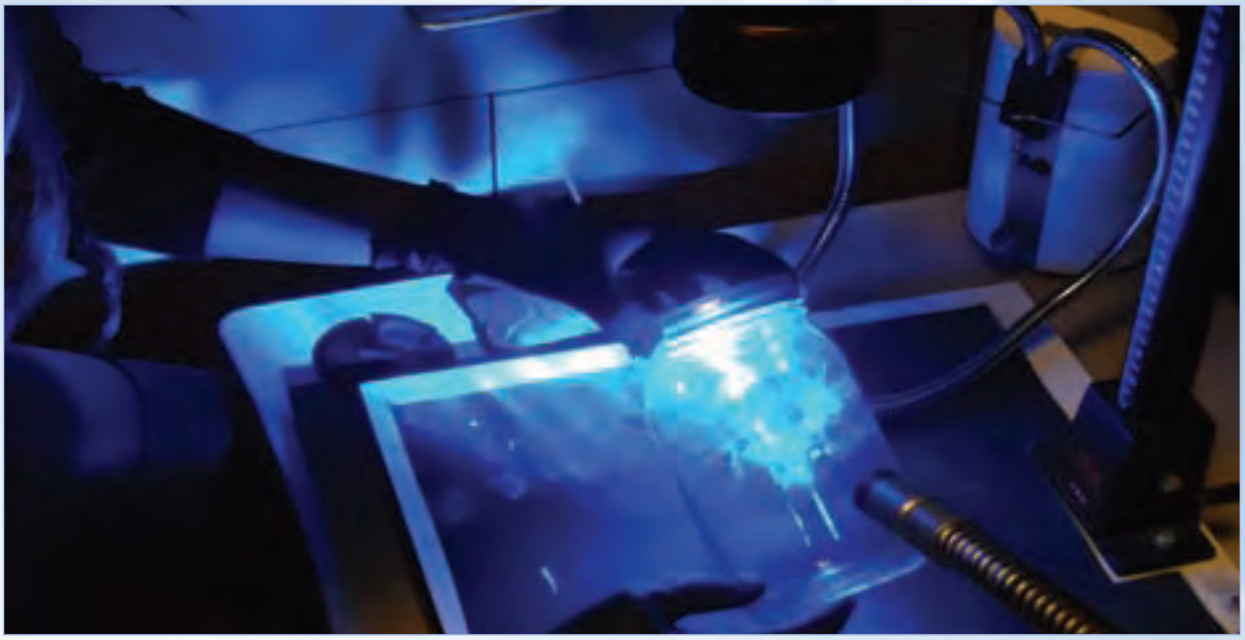

ضعيف السمع، أو شم أو تذوق وهو غير قادر على ذلك، وكذا معاينة حالة الشاهد العقلية والنفسية. ويثبت بالمعاينة أيضا العلاقة بين ما عثر عليه من آثار بمكان ارتكاب الجريمة أو بالمجني عليه وما وجد من آثار على المشتبه فيه فينفي أو يؤكد علاقته بالجريمة.

وللقائم بالمعاينة أن يستعين بكل الوسائل والأساليب المشروعة التي تسهل له القيام بعمله، كاستخدام الأجهزة العلمية الحديثة والاستعانة بالخبراء، ليتمكن من رؤية ما لا يراه بالعين المجردة، وتحقيق ذاتية الصوت والرائحة، وتحليل الأشياء وبيان عناصرها ومضاهاتها.

وتهدف المعاينة في المسائل الجنائية إلى فحص الأشياء أو الأماكن أو الأشخاص، والبحث عن الآثار المادية التي تثبت وقوع الجريمة وتحديد مرتكبها، أما في المسائل المدنية فإنها تهدف إلى معرفة حقيقة النزاع، وبالتالي فإنها تؤدي إلى استخلاص وجه الحكم فيه والمعاينة في الإثبات الجنائي لها أهميتها في الإسهام في إثبات وقوع الجريمة أو عدم وقوعها، ونوع الجريمة متعمدة كانت أم خطأ، وتحدد مكان ارتكاب الجريمة، وسبب وكيفية حدوثها، والآلة المستخدمة في ارتكابها.

وتوضح المعاينة كيفية دخول الجاني إلى مكان ارتكاب الجريمة وخروجه - وذلك يبدو من حجم العمل الجنائي وأسلوب ارتكابه وآثار الأقدام والبصمات - منه، وعدد الجناة ودور كل منهم في حالة التعدد، ومعرفة الجاني السابقة بمكان الحادث، وعلاقة الجاني بالمجنى عليه، في حالة التعدي على الأشخاص وبصفة خاصة الحوادث التي تستخدم فيها الأسلحة النارية تبين مكان الجاني من المجني عليه والمسافة بينهما وهل حدثت مقاومة من عدمه، وتبين أيضا الطريق الذي سلكه الجناة أثناء هروبهم فيسهل ضبطهم.

وتؤدي المعاينة الدقيقة إلى تحديد شخصية الجاني وذلك من الآثار المادية التي تركها بمكان ارتكاب الجريمة، وتوضح كثيراً من عادته، وعلى سبيل المثال من أعقاب السجائر الملقاة يمكن معرفة عادة التدخين ونوع السجائر التي يدخنها، ومعرفة صفاته وحرفته وأمراضه ومن تحليل أثر البصاق أو الدم يمكن الوقوف على ما يعانيه من أمراض.

كما أن للمعاينة أهميتها في الكشف عن الآثار المادية التي تخلفت نتيجة ارتكاب الجريمة، سواء من الجاني أم من المجني عليه أو الآلة التي استعملت في ارتكاب الحادث، كآثار البصمات والأقدام والدم والمقذوفات النارية والشعر والألياف والزجاج والرائحة، إلى غير ذلك من الآثار ورفعها وإجراء المضاهاة للوقوف على مصدرها.

وقد ثبت أن كل مجرم له أسلوبه الإجرامي المميز في ارتكابه الجريمة، لأنه وجد في هذا الأسلوب سهولة ارتكاب الجريمة والإفلات من العدالة، فاستمرأه واعتاد عليه، وقد تكون لديه إمكانات عقلية وجسمية تتناسب مع أسلوبه الإجرامي وبعض المجرمين أثناء ارتكابهم الجريمة يقومون بعمل اعتادوا عليه،

كإضاءة النور حتى ولو كان ارتكاب الجريمة نهارا، أو تدخين سيجارة أو إحراق بعض الأوراق أو فتح صنابير المياه، إلى غير ذلك مما يعبر عنه بالبصمة النفسية، والمعاينة من أهم الوسائل التي توضح الأسلوب الإجرامي والبصمة النفسية.

ويتبين من المعاينة الفعل المادي الذي قام به الجاني أثناء ارتكابه الجريمة، ومدى العنف أو الغدر الذي اتبعه للوصول إلى غرضه الإجرامي، الأمر الذي يدل على نفسيته وخطورته الإجرامية، وتشير الوسائل المستخدمة في ارتكاب الجريمة، وكذا الأضرار الناجمة عن النشاط الإجرامي، ودرجة جسامة القصد الجنائي والخطأ غير العمدي كل ذلك تشير إلى جسامة الجريمة، مما يتطلب تفريد العقاب وفقا لشخصية الجاني الإجرامي، لإصلاحه وإعادة تأهيله عضواً صالحاً بالمجتمع. وردع من تسول له نفسه ارتكاب الجريمة.

ويستنتج من المعاينة الخطوات التي يتبعها المحقق لكشف غموض الحادث كتحديد الأماكن التي يبحث فيها عن جسم الجريمة ونوع الأداة المستخدمة في ارتكاب الجريمة كنوع السلاح بندقية أم مسدس حتى يتمكن من البحث عنها في الأماكن التي تشير التحريات إلى وجودها بها وكذا الأشخاص المشتبه في ارتكابهم للواقعة، ويمكن القول بصفة عامة أن المحقق يستطيع من المعاينة تكوين رأي عن كيفية وقوع الجريمة وما الحلقات المفقودة لكشف غموضها وكيفية الحصول عليها.

وتكشف المعاينة عما قد يوجد من عيوب في الأدلة ووسائل الإثبات الأخرى، وبصفة خاصة الأدلة المعنوية، لما للمعاينة من أثر في اقتناع القاضي لأنها تتضمن الأدلة المادية التي لا تخضع لمؤثرات وضغوط تؤدي إلى ضياع الحقيقة عن عمد أو خطأ في التقدير كما في الأدلة المعنوية.

وللتأكد من كيفية وقوع الجريمة وصدق أقوال الجاني أو المجني عليه أو الشهود يعاد تمثيل الحادث لكشف الحقيقة.

وتنقل المعاينة صورة واضحة لمكان ارتكاب الجريمة وأطراف الواقعة فتساعد القاضي على تصور كيفية ارتكاب الحادث، ومتابعة إجراءات المحاكمة والاطمئنان أو الشك في أقوال الشهود والمجني عليه والمتهم. فالمعاينة تبين الحقيقة وتكشف عن دليل الإدانة كما تظهر دليل البراءة.

كما أنها تمكن الباحثين في مجال الجريمة من إجراء الدراسات عن الجرائم المختلفة، لبيان أسباب حدوثها والدوافع عليها ودور المجني عليه في حدوثها، والثغرات التي توجد بالخطط الأمنية الموضوعة لمنع ارتكاب الجريمة.

فيحدد العلاج الذي يحول دون تكرار ارتكاب الجرائم وذلك بسد الثغرات التي ينفذ منها المجرم والقضاء على البؤر والظواهر الإجرامية، كما أن المعاينة في الجرائم الغامضة تساعد فريق البحث على وضع خطة محكمة لكشف غموض الحادث، وذلك بتكوين الاحتمالات من خلال تصور كيفية وقوع الحادث، وسببه والأسلوب الإجرامي وما يعثر عليه من آثار مادية.

وتساند المعاينة وتعزز باقي الأدلة في الدعوى وتكشف عن مدى تناسقها وصحتها من عدمه، ومن هذا المنطلق فإن المعاينة تُعد من أهم وسائل الإثبات الجنائي لأنها تعبر عن الواقع تعبيراً صادقاً لا تحابي ولا تخدع ولا تكذب وتعطي صورة واقعية لمكان ارتكاب الجريمة وما فيه من آثار مادية وتوضح كيفية تنفيذ الجريمة بما ينعكس أثره على المحقق والقاضي).